هجرة المسيحيين من الجزيرة

إن هذا العنوان الذي يبرز بشكل حاد في نهاية الخمسينات وقبلها في فترات مؤقتة انتهت في حينها هو واحد من اهم المسائل الوطنية التي بقيت معلقة دون حل لحد الآن . وإن جرت مبادرات لمناقشتها ودراستها بعض أوقات شدتها ولكنها جميعا استمت بالطابع العاطفي دون أن تأخذ حقها من التدقيق والجدية سواء من قبل السلطات الحكومية أم من قبل المؤسسات الكنسية التي هي بشكل أو بآخر في غياب تمثيل مدني علماني لشرائح المسيحيين في الجزيرة أخذت طابع التمثيل شبه الرسمي لهم . ولم تفلح متابعة ودراسة وحلول وإمكانيات المنظمة الآثورية الديمقراطية بالنسبة للآشوريين والأحزاب الأرمنية بالنسبة للأرمن (هذا إن وجدت فعلا في الجزيرة) على فعل ما يمكن أن يكون فعلا وتأثيرا كافيا . حيث أن مسألة الهجرة هي أكبر من أن تحلها جهود جهة واحدة فقط إنما هي نتاج تضافر جهود لكل المؤسسات والأحزاب والكنيسة والدولة معا . وإن كان نصيب الدولة من المسؤولية والواجب يكتسب النصيب الأكبر .

إن المسيحيين الموجودين بالجزيرة هم من قوميتين فقط . الأرمنية والآشورية موزعين على تسميات طائفية معروفة فالأرمن هم طائفتان الأرثوذكس والكاثوليك . والآشوريين أربعو طوائف (السريان الأرثوذكس – السريان الكاثوليك – السريان النساطرة – الكلدان) وأن الطائفة ذات الأغلبية العددية هي طائفة السريان الأرثوذكس . وعندما سيرد ذكر الآشوريين في صفحات هذه المقالة أو اسم السريان فإنما يكون المعنى واحدا والقصد واحد .

أولا - الأرمن :

لا أود التفصيل في موضوع الأرمن ووجودهم في الجزيرة لأنه يمكن لأبنائهم الكتابة في هذا الموضوع بدقة كافية . إنما يمكن القول أنهم جاؤوا إلى الجزيرة مطرودين مساقين للذبح كالنعاج في سنوات الحرب العالمية الأولى . وهناك مواقع في دير الزور والشدادي أصبحت جزءا من تاريخ مأساتهم حيث بقايا الرماد لعشرات الآلاف من ضحاياهم المذبوحة بأيدي الأتراك . ومن بقي منهم على قيد الحياة تقاطر إلى مدن الجزيرة فيما بعد حيث تمت هجرتهم المنظمة من سوريا على أرمينيا السوفيتية على مرحلتين . وما تبقى منهم في الجزيرة لا يتجاوز عدة آلاف .

ثانيا – هجرة الآشوريين من الجزيرة :

- ماهية التسمية وعلاقتها بالسريانية :

كما هو معروف كانت الدولة الآشورية فيما بين النهرين في الألف الأخيرة قبل سقوط نينوى هي أقوى مرحلة سياسية وطنية بسطت نفوذها على مجمل جغرافية وشعب المنظمة بكل تسمياته الأخرى كالسومرية والأكادية والبابلية والارامية والتي كانت كلها تسميات تتبع اسم العاصمة أو اسم المنطقة أو اسم الآلهة آنذاك . فعرفت المنطقة من خلال (آشور وآشوريان) حسب اللفظ اليوناني منذ القرن الخامس قبل الميلاد با سوريا وبالتالي بسوريا وشعبها عرف تبعا لذلك بالسريان . هذا اختصار كما يؤكد عليه كثير

من المؤرخين الثقاة . فأصبح الاسم السرياني محصلة تاريخية جديدة لحضارة ما بين النهرين اشتقاقا من أقوى وأطول مرحلة تاريخية من مراحلها السابقة وسميت أيضا اللغة باللغة السريانية . وبالتالي حينما نذكر سريانية تعني بحقيقتها المطلقة الآشورية بالمعنى العلمي للكلمة .
أما اسم طائفة الكلدان وهي أكبر طائفة بين الآشوريين عموما بالعالم فإنما أطلق في منتصف القرن الخامس عشر من قبل البابا اوجانيوس الرابع على السريان الشرقيين النساطرة الذين تبعوا الكنيسة الكاثوليكية بمرسوم ينص حرفيا على (لم يعد يسمى هؤلاء السريان النساطرة سريانا إنما كلدان وبطريركهم بطريرك بابل للكدان) .
وذلك أصبحت التسمية معضلة شائكة لدى السريان الآشوريين وباتت تقترن بالحساسية المفرطة في التعامل بعد مئات السنين موزعين على كنائس وطوائف متناحرة في أغلب الأحيان . وفي العراق في عام 1972 عندما فكرت الحكومة العراقية بمنح الحقوق الثقافية لأبناء الشعب الواحد (الكلدان والسريان) لم تجد حلا سوى عبارة (مرسوم الحقوق الثقافية للناطقين باللغة السريانية من كلدان وسريان وآثوريين) وطبعا يقصد بالآثوريين النساطرة فقط في مضمون المرسوم . ولا زالت التسمية تأخذ دورها في تأزيم المسألة القومية الآشورية لحد الآن وإن كانت بنسبة أقل ويلعب دورا هاما في تأزيمها رؤساء الكنائس وكل من له مصلحة في عدم تقارب ووحدة هذا الشعب . ونحن بالمنظمة الآثورية الديمقراطية نتعامل بمرونة في موضوع التسمية رغم أن التسمية الرسمية هي الآشورية . مع ذكر كل التسميات الأخرى السريانية والكلدانية في سياقها التاريخي والتوثيقي اللازم .
- لمحة عن جغرافية الجزيرة السورية (محافظة الحسكة) :
الجزيرة السورية هي جزء صغير من أرض ما بين النهرين وطن السريان القدماء . وقد سمى العرب الجزء الشمالي من أرض الرافدين (ما بين النهرين) بإقليم الجزيرة . وهي تشمل كافة الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات . من تكريت وسامراء جنوبا وحتى حدود ارمينيا وجبال طوروس شمالا شاملة ولاية الموصل وكافة اراضي محافظة الحسكة الحالية ومحافظة دير الزور ومحلفظة الرقة وجزء من محافظة حلب وشمالا من الرها وحران غربا حتى جبال حيكاري شرقا مرورا بماردين ونصيبين وآمد (ديار بكر) وطور عبدين وآزخ وغيرها وقد استمدت اسمها الجزيرة لوقوعها بين النهرين المذكورين . ويذكر ياقوت الحموي أنه كان يطلق أيضا على إقليم (آثور) وهو اللفظ العربي لآشور .
إذن فمحافظة الحسكة بحدودها الإدارية الحالية هي جزء صغير من أرض إقليم الجزيرة الكبير والتي هي ما بين النهرين الشمالية أو (العليا) والتي تشكل مع جنوب أرض الرافدين (بابل وأكاد وسومر حتى مصبات النهرين في الخليج) أرض الرافدين المعروفة بالأدبيات السريانية (بيث نهرين) والتي لها في قلب كل سرياني بالمعنى الشامل للكلمة موقعا حميما كوطن الأجداد حيث المدنية والحضارة والهوية .

وفي العشرينات وكنتيجة لتقاسم مناطق النفوذ من قبل فرنسا وانكلترا قسمت الجزيرة إلى ثلاث أجزاء الأوسط من نصيب سوريا والجنوبي من نصيب العراق والشمالي من نصيب تركيا . فرجع جزئين منها إلى جذورها وبقي الجزء الشمالي من أرض الرافدين محتلا مغتصبا بأيدي تركيا . كما اغتصب لواء اسكندرون فيما بعد . فالجزء الشمالي من الرافدين بأيدي الأتراك حاليا سيبقى كحقيقة تاريخية جزءا من أرض الرافدين التي ورثتها فيما بعد الفتوحات العربية الإسلامية في المرحلة الأموية والعباسية .

- تواجد الآشوريين في الجزيرة :

إن تواجد واستمرار تواجد السريان في أرض الرافدين عموما ومحافظة الحسكة تحديدا أيضا لم ينقطع إلا لثلاث قرون خلت في الجزيرة السورية إثر الجفاف والحروب وإنعدام الأمن فنزح من استطاع شمالا إلى المدن الرئيسية الحصينة في نصيبين وماردين والرها ومديات وآمد وغيرها . لينضموا أبناء قومهم في تلك المدن .

إن أكثر من ألفي موقع وتل أثري ينتشر في الجزيرة يدل على آثار أجداد السريان (الآشوريين والآراميون والبابليون والسومريون) . وما اكتشف من مواقع آثارية لحد الآن إنما يدل على هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك . فتل حلف قرب رأس العين كانت مملكة آرامية لازالت تماثيلها المكتشفة تزين مدخل متحف حلب (وهي النسخة غير الأصلية . وتل براك ظهر فيه قصر الملك نارام سين حفيد سركون الآكادي (2300ق.م) وتل الشيخ حمد قرب الشدادي ظهر فيه مدينة آشورية في العصر الوسيط وموقع تل بيدر ظهر فيه أيضا مدينة آشورية . وتل ليلان قرب القحطانية ظهر فيه قصرا للملك الآشوري شمشي حدد. إضافة إلى عشرات التلال الأخرى ومنها تل تنينير وتل كشكوك, تل خزنة وهذه الخيرة ظهر فيها لعام 1996 معابد وأبنية رسمية مطابقة بتصميمها لمثيلاتها في جنوب ما بين النهرين في سومر وأكاد وبابل مما أثبت ذلك الرابطة والوحدة الحضارية التاريخية بين شمال وجنوب الرافدين منذ الألف الخامسة قبل الميلاد . ويستمر التواجد الآشوري في مابين النهرين باسمه السرياني منذ القرن الخامس قبل الميلاد وحتى مجئ المسيح والإسلام وبداية القرن العشرين دون انقطاع ويظهر ذلك جليا في عشرات المؤلفات التاريخية ومن خلال توزع مئات الأديرة والمدن والمدارس الثقافية والدينية الشهيرة . نذكر منها مدرسة جنديسابور ونصيبين وماردين ومذيات والرها وحران وقنشرين وريشعينا (رأس العين) والرقة . وقد ساهم السريان في المرحلة العربية الإسلامية في دور ثقافي وتنويري بارز كان له الدور الحاسم في النهضة الثقافية والعملية الحضارية التي تبنتها رسميا الدولة العربية الإسلامية من خلال النقل والترجمة لمجمل التراث السرياني واليوناني عبر السريان إلى العرب وحركة الترجمة والنقل في العصر العباسي مشهورة ومعروفة والتي لم تتوقف حتى قرون متأخرة .

ويجئ مطلع القرن العشرين والسريان في مواطنهم في شمال الرافدين وجنوبه يتوزعون في أراضي السلطة العثمانية بالشكل التالي :

في جبال حيكاري : على الكتف الأيمن من الرافدين في شرق تركيا الحالية على الحدود الإيرانية, كان العدد بحدود مائتي وخمسون الفا (250 الفا) وكلهم من الطائفة السرقية القديمة (النسطورية) .
في جبال طور عبدين وماردين وديار بكر (آمد) والرها وحران ونصيبين وغيرها وكانوا بحدود 275 ألفا ومعظمهم من السريان اليعاقبة (السريان الأرثوذكس) وكان عدد السريان الكاثوليك والكلدان والبروتستانت لا يتجاوز 25 ألفا .
هذا فقط العدد من السريان الذين أصابهم سيف التهجير فيما بعد الحرب العالمية الأولى ولم تذكر الأعداد التي كانت في منطقة الموصل وبغداد والبصرة والمدن الداخلية في سوريا ولبنان وفلسطين حيث لم يصبها سيف التهجير بشكل مباشر, والذي يفوق عددهم عن السريان موضوع هذه الدراسة والخاص في المنطقة التي تعرضت للتهجير
أما بالنسبة لعدد العرب في أرض الرافدين الشمالية (إقليم الجزيرة) فكما هو معروف فإن القبائل العربية الشمالية استوطنت هذه الديار قبل الميلاد واستمرت حتى مجئ الإسلام وتوزعت قبائلها في معظم ارض الجزيرة وعرفت في الشمال بديار بكر وفي الفرات الأوسط بديار مضر وفي الجنوب بديار ربيعة ودخل بعض هذه القبائل المسيحية ومنهم قبيلة بني تغلب وطي والمناذرة . ولكن معظمهم دخلوا الإسلام في السنوات الأولى للفتوحات وبشكل عام لا نعرف النسب العددية للعرب في الجزيرة ولكن لم يكن قليلا وازدادت نسبته بعد الفتوحات الإسلامية بالتأكيد .
أما عن النسبة العددية للأكراد أو للأتراك فيما بعد فليس لدينا نسب دقيقة لعددهم وأعتقد أن عددهم لم يتجاوز عدد العرب في تلك الديار . إنما كثر تواجد الأكراد في المرحلة العثمانية حيث سمح السلطان سليمان القانوني بإقامة إمارات كردية شبه مستقلة على الحدود مع إيران (شهرزور) وفي منطقة الجزيرة (ديار بكر) وأشهر تلك الإمارات هي الإمارة البدرخانية التي ساعد العثمانيون على إقامتها عند الحدود مع إيران في منطقة السليمانية بالعراق . وفي نهاية القرن التاسع عشر شكل السلطان عبد الحميد فرقا حربية مع الأكراد وسميت بالفرق الحميدية والتي كان لها دورا كبيرا مع بعض الأغوات الأكراد في طرد السريان الآشوريين والأرمن من مناطقهم خلال الحرب العالمية الأولى وطبعا ضمن مخطط إبادة وضعته الحكومة التركية وبموافقة حليفتها ألمانيا .
- مراحل التهجير ومساراته وطريق النضال من أجل البقاء :
لم تتوقف مسيرة الأيام الصعبة على السريان منذ سقوط دولتهم في نينوى وبابل سماء في مرحلة الاحتلال الفارسي أو بعده اليوناني ثم البيزنطي قبل الميلاد وبعده . رغم بقاء بعض الممالك الصغيرة ذات الإدارة الذاتية تحت إشراف الإمبراطوريات القائمة . ومنها مملكة الرها وإمارة الحضر (حطرا) ومملكة تدمر . إلا أنها لم تدم طويلا لأكثر من ثلاثة قرون بعد الميلاد . وعندما بدأت الخلافات الدينية وانقسمت الكنيسة السريانية في المشرق في بداية القرن الرابع الميلادي وتكرس الانقسام نهائيا بمنتصف القرن الخامس الميلادي حيث انقسم سريان الرافدين بين النسطورية التي انتشرت شرقا ضمن

حدود المملكة الفارسية . واليعقوبية ضمن حدود الدولة البيزنطية . حيث لاقى اليعاقبة سلسلة اضطهادات تذكرها الكتب والوثائق الكنسية وتصف ويلاتها بسبب مخالفة العقيدة (الأرثوذكسية) أي اليعقوبية عن العقيدة البيزنطية حيث اعتبروهم غير موالين لهم بل اعتبرت عقيدتهم تعبيرا عن الرغبة بالاستقلال ومقاومة الاحتلال البيزنطي . وكذلك الأمر في تخوم الإمبراطورية الفارسية ذهب ضحية الاضطهادات مئات الألوف من السريان النساطرة واليعاقبة أيضا في سبيل ثباتهم في عقائدهم التي اعتبروها تعبيرا عن الهوية والرغبة بالاستقلال ضمن هيكل الكنيسة ذات الأصول الوطنية والتي أخذت طابعا جديدا عن الهوية والكيان . وعند مجئ الإسلام رحب السريان بالفاتحين ونسقوا معهم على فتح البلاد ليتخلصوا من الروم والفرس . وقد ساهموا حتى في العمليات العسكرية في بعض المواقع وكثير من المدن الأساسية فتحت أبوابها سلما وقد سمى السريان الخليفة عمر بن الخطاب بالفاروق التي تعني بالسريانية المخلص . وقد عاش السران ضمن إطار الدولة الإسلامية الأموية والعباسية في أمان واستقرار نسبي وخصوصا وأنهم حصلوا من الرسول محمد على صكوك بالأمان ونعموا بالحماية عبر التشريعات بالقرآن والحديث الشريف .

واعتمدت الدولة الإسلامية على السريان في تثبيت دعائم الدولة بكافة مناحي النشاط الاقتصادي والثقافي والعلمي وأصبحت الأديرة السريانية مراكز للترجمة والنقل للعلوم السريانية واليونانية عبر اللغة السريانية إلى العربية حتى نهاية الخلافة العباسية . إضافة إلى إخلاص السريان للدولة العربية الجديدة كرعايا مخلصين دون أن يذكر التاريخ أي شائبة في إخلاصهم حتى في مرحلة حتى في مرحلة الحروب الصليبية بالذات حيث وقفوا مع إخوانهم العرب على طول الخط بالرغم من اعتبارهم من قبل الدولة العربية الإسلامية أهل ذمة والتي تعني بحقيقتها مواطنين درجة ثانية حسب المفهوم العصري .

وبدأت مسيرة الآلام مع الضعف في الدولة العباسية والغزو المغولي وفيما بعد بالغزو العثماني حيث تذكر الوثائق سلسلة من الويلات والاضطهادات تكاد تكون متواصلة . وتجئ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لتكتمل ذروة المجازر وتأخذ في النهاية صفة قتل واقتلاع شعب, وإبادة حقيقية شارك فيها هذه المرة وباركتها حكومات حديثة ودول ذات سيادة وعلى رأس تلك الدول تركيا وبمعرفة وسكوت وبل ومباركة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى, ولا تعفى بريطانيا وروسيا وفرنسا أيضا من محنة هذا الشعب حيث فضلت هذه الدول مصالحها الذاتية المباشرة في سحب الحماية والتلاعب بمصيره ناسية وعودها الكاذبة . ويؤرخ الكاتب قسطنطين ماتفييف والكاتب يوسف مالك بدقة لهذه المرحلة . ومن المذابح الأخيرة المعروفة :

بين عام 1842 – 1847 قام الأمير الكردي بدرخان بإبادة ما يقارب عشرة آلاف من الآشوريين (السريان النساطرة) في جبال حيكاري واضطر المثير منهم للهرب والبعض اضطر لاعتناق الإسلام .

في عام 1895 جرت مذابح أيام السلطان عبد الحميد ضد الأرمن والسريان ذهب ضحيتها حوالي 5000 شخص من السريان في ماردين والرها .
في عام 1909 وبتحريض من حركة تركيا الفتاة جرت مذابح ضد السريان في أضنة ذهب ضحيتها 800 قتيل وآلاف المشردين .
أما أعنف المذابح وأقساها فهي م1بحة سفر برلك (1914 – 1919) التي ذهب ضحيتها حوالي 230 ألف سرياني منهم حوالي 130 ألف من الآشوريين (السريان النساطرة) في منطقة حيكاري وحوالي المائة ألف من السريان الأرثوذكس والكاثوليك وأرشيف عصبة الأمم المتحدة ملئ بوثائق الضحايا والخسائر .
هذا وقد قدم الوفد الآشوري المرسل من اللجنة الوطنية الآشورية في أمريكا والذي كان في عداده أيضا المطران أفرام برصوم (بطريرك السريان الأرثوذكس لا حقا) إلى مؤتمر السلام في باريس عام 1919 وثائق بالخسائر ومن المطالب التي قدمها الوفد والمطران المذكور مطالبتهم بعدم قبول انضمام (الرافدين العليا) إلى تركيا بل بتبعيتها إلى سوريا . ويكرر المطران المذكور في 8 آذار 1920 بإلحاح إلى رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج وإلى رئيس البرلمان البريطاني معارضا بشدة منح ماردين والرها وطور عبدين إلى تركيا .
وبانتهاء الحرب العالمية الأولى تم إخلاء كامل سكان جبال حيكاري حيث كانت عام 1915 موقع التجمع الرئيسي للآشوريين النساطرة ومركزا للبطريركية الشرقية القديمة والتي كانت تضم مئات القرى الجبلية الحصينة وبتعداد حوالي 250 ألف إنسان تم تهجيرهم بالكامل في واحدة من أقسى وأمر القصص المأساوية المليئة بالآلام والدمار والضحايا عبر مسيرة شاقة دامت ثلاث سنوات عبر خط سير من حيكاري إلى اورميا بإيران شرقا وحتى معسكر بعقوبة بالعراق جنوبا ومن ثم لولاية الموصل ومن وإثر أحداث 1923 المأساوية بالعراق اضطر أخيرا حوالي 12000 (إثنا عشر ألفا) منهم النزوح إلى الخابور بسوريا في عهد الانتداب الفرنسي .
وأما مناطق طور عبدين وآزخ وآمد والرها وغيرها فقد اكتمل النزوح منها إلى سوريا ولبنان ولم يبق حتى عام 1926 سوى القلة القليلة من السريان لا يتجاوز العشرة بالمائة من عددهم الأصلي قبل المجازر في مدن ماردين ومذيات وديار بكر وفي آزخ وبعض القرى المجاورة لهذه المدن . وفي إحصاء لعام 1996 بقي فقط من السريان في تركيا الجنوبية 2300 شخص فقط علما أن مدينة آمد (ديار بكر) وحسب دائرة المعارف الإسلامية كانت تحوي في نهاية القرن التاسع عشر 25 ألف شخص كان بينهم 4120 كرديا و 12000 سريانيا أي بحدود النصف وكان ذلك ينطبق على معظم المدن الرئيسية . حيث كانت التقديرات لعدد السريان في تركيا مع بداية هذا القرن 250 ألف سرياني نسطوري في جبال حيكاري وحوالي 275 ألف سريان يعاقبة وكاثوليك وكلدان كما ذكرنا سابقا .
- مسارات الهجرة من تركيا إلى أجزاء الوطن الأخرى وإلى المهاجر الأجنبية :

أخذت الهجرة مع بداية عام 1985 من حيكاري واورميا باتجاه روسيا طابعا فرديا وأيضا من مناطق طور عبدين وديار بكر وماردين والرها باتجاه لبنان وبعض المدن الداخلية السورية . وحتى باتجاه أمريكا الشمالية والجنوبية طابعا فرديا أيضا . ولكن الهجرة التي اكتسبت طابعا جماعيا كانت إثر الحرب العالمية الأولى . وبشكل رئيسي باتجاه سوريا مع بداية الانتداب الفرنسي . فهاجر جميع أهل الرها إلى مدينة حلب ومعظم أهالي ديار بكر وماردين ومذيات وآزخ إلى الجزيرة السورية جنوبا وقسم إلى لبنان والبعض أيضا باتجاه أمريكا الشمالية . واكتملت موجات النزوح بين عامي 1924 – 1926 وعقبها فقط الموجة الأخيرة عام 1933 إثر الأحداث المأساوية في العراق حيث نزح 12000 آشوري (من النساطرة) من العراق باتجاه الخابور حيث تم إسكانهم من قبل سلطات الانتداب وضمن خطة لعصبة الأمم المتحدة على الشريط النهري الممتد من قرية تل طويل وحتى قرية تل هرمز (عدد القرى 33 قرية) .

لقد بنى الآشوريون هذا الشريط بعد أن كان خاليا تماما من الحياة ومليئا بالأمراض والحشرات وحولوه إلى شريط أخضر تملؤه الخضرة والبساتين في سنين قليلة . كما بنى إخوانهم قبلهم من جديد نصيبين الجديدة (القامشلي) التي لم يكن لها وجود قبل 1925 . وكذلك بنوا مدنا جديدة كالدرباسية وقبور البيض والمالكية وأعادوا الحياة من جديد إلى مدينة رأس العين والحسكة . كما انتشروا في مئات القرى بين هذه المدن .

لقد كان السريان الآشوريين البناة الأساسيين للجزيرة الجديدة وخصوصا المدن المذكورة حيث عملوا بالزراعة والتجارة والحرف الصناعية . وأول عمل قاموا به منذ حلولهم كان بناء المدارس الملحقة بالكنائس قبل أن تفكر الدولة بذلك . وأسسوا الأندية الرياضية والكشفية والصالات ذات الأنشطة الاجتماعية والثقافية الملحقة بالكنائس وذلك في كافة مدن الجزيرة . كمثال نذكر أنه (كان في رأس العين مدرستان ابتدائيتان ومدرسة إعدادية وفي الدرباسية مدرستين ابتدائيتين وفي القامشلي سبع مدارس ابتدائية ومدرستان إعداديتان ومدرسة ثانوية وفي قبور البيض مدرسة ابتدائية وفي المالكية مدرستين ابتدائيتين ومدرسة إعدادية وفي الحسكة مدرستين إعداديتين ومدرستين ابتدائيتين وفي تل تمر مدرسة ابتدائية) . لقد ساهمت تلك المدارس في إنشاء جيل متعلم واع لواقعه ومستقبله وكان له دورا فاعلا في مجمل الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية في الجزيرة السورية .

- دور السريان في الحياة السياسية في الجزيرة :

مع مجئ السريان إلى الجزيرة واستقرارهم النسبي فيها وخصوصا بعد استقرار الدفعة الأخيرة منهم عام 1933 في الخابور . بدأوا بثبات في إرساء دعائم حياتهم الجديدة ومؤسساتهم الثقافية والاجتماعية والدينية . ومعها سعوا في بناء علاقات جديدة مع أبناء وطنهم المشاركين لهم الحياة فيه وعلى أسس جديدة تقوم على الاحترام المتبادل وسعت المؤسسات الاجتماعية والدينية والشبيبة المثقفة في هذا الاتجاه بكل قواها ساعية إلى تناسي الماضي الحزين ومحاولة إزالة حواجز عدم الثقة والشك في العلاقات والتطلع إلى واقع أكثر إيجابية وإنسانية وهدوءا ظل السريان يحلمون به منذ مئات السنين . وبدأ

أن مرحلة الاستقرار والطمأنينة بدأت تأخذ دورها فتعاونوا مع بقية إخوانهم من عرب وأكراد في المساعدة على تثبيت قواعد الثقة والتعاون من خلال العمل في الميدان السياسي آنذاك بالتعاون مع الثورة السورية والحكم الوطني في سوريا في فترة ما قبل الاستقلال وفي تفويت الفرصة على فرنسا في فصل الجزيرة عن سوريا في عام 1937 . حيث كان لمواقف المطران قرياقس وكذلك البطريرك برصوم وبقية رجالات الدين الوطنيين والشبيبة السريانية ومؤسساتها الوطنية ونشاط الحزب الشيوعي السوري وحزب السوري القومي آنذاك وحيث كان السريان يشكلون الأكثرية العددية في هيكلية هذه الأحزاب . كل ذلك أثر في فشل الخطة الفرنسية في فصل الجزيرة . وشارك السريان بفعالية في الانتخابات النيابية قبل وبعد الاستقلال ومن النواب المعروفين سعيد اسحق والياس نجار .

لقد ساد شعور عام أن مرحلة جديدة وإيجابية بدت تأخذ مجراها حتى ما قبل بداية الوحدة السورية المصرية عام 1958 وبدا أن كل شيء يسير على ما يرام .

لم يفكر أحد بالهجرة قبل هذا الوقت . سوى حالة نزوح بعض مئات من أسر المجندين من السريان في الجيش الفرنسي حيث اسنحبوا مع جيش الانتداب إلى رياق في لبنان وسط إشاعته السلطات الفرنسية في نفوس هؤلاء الجنود أن الحكومة الوطنية ستنتقم منهم لكن مواقف الحكومة الوطنية آنذاك ومساعي البطريرك أفرام برصوم والمطران قرياقس كان لها دور حاسم في إعادة معظم هؤلاء إلى البلاد وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي . بل تطورت مسيرة الحياة الديمقراطية وبدا جوا من الانفتاح والإيجابية اكثر من السابق . حتى جاءت الوحدة السورية المصرية التي أحدثت سنواتها الثلاثة تغييرا عميقا في الواقع السياسي والاجتماعي والنفسي نحو الأسوأ, فأطلق عند الناصر لأجهزته الأمنية العنان في نشر جو من الإرهاب على المجتمع ولوحقت القوى السياسية عموما وزج معظم الفعاليات السياسية في السجون وساد جو من التطرف في إدارة البلاد من قبل السلطات الإدارية والأمنية .

وفي وسط هذا الجو بدأت تنمو هواجس الحذر والقلق على المستقبل خصوصا وأن الأخبار عن واقع المسيحيين في مصر لم تكن طيبة . ورافق ذلك تهديدات عند الناصر بالتدخل في لبنان إثر خلافه مع كميل شمعون مما أثار مخاوف لدى المسيحيين بأن تيارا إسلاميا متطرفا بدأ بالانتشار في المنطقة, وسادت مخاوف على مصير المؤسسات الثقافية والرياضية والاجتماعية والدينية التي بناها السريان خلال السنوات الأربعين السابقة . وتكرست تلك المخاوف في افتعال حادثة من قبل بعض الضباط أدت إلى إغلاق نادي الرافدين الشهير بالقامشلي . وبدأت السلطات بالتضييق والمراقبة على نشاط المدارس والمؤسسات الأخرى حيث كانت نظرة الريبة من قبل السلطات تجاه هذه المؤسسات بأنها ذات ميول شيوعية تارة أو سورية قومية تارة أخرى أو ميول سريانية آشورية . وقد رافق سنوات الوحدة القصيرة هذه سنوات جفاف في المواسم الزراعية وجمود اقتصادي عام . حتى أن معونات غذائية أجنبية (أمريكية) كالطحين كانت توزع على الفقراء في تلك السنوات العجاف مما أدى إلى ترافق عاملين أساسيين

في بداية هجرة جديدة وهما العاملان النفسي والاقتصادي . وهذه المرة إلى لبنان بشكل أساسي ومنها إلى أمريكا واستراليا وأوروبا وقسم من المهاجرين إلى حلب ودمشق ولكن بنسب قليلة وبدأت أعداد المهاجرين تتزايد وكل فرد وعائلة مهاجرة تشجع أقرابائها في الوطن للحاق بها في سلسلة لم تنقطع . لم تشكل هذه الهجرة في بداياتها خطورة على النسيج الاجتماعي في الجزيرة عدديا, إلا أن استمرارها فيما بعد دون توقف وإن بوتائر بطيئة فتحت موضوعا جديا في الوسط المسيحي بشكل عام والسرياني الآشوري بشكل خاص .

وبدأ موضوع الهجرة يفتح مناقشته بشكل دائم وفي كل حالة وداع مهاجر جديد . بدأت مع الناس هذه السلسلة من النقاشات تطرح فيها التي تطرح فيها جدوى استمرار السريان في الجزيرة . سؤال خطير لم يفكر فيه أحد من قبل وانقسم الناس بين مؤيد للهجرة كخلاص فردي وبين مؤمن بالاستمرار في أرض الآباء والأجداد وتحمل كل الصعاب وأن قدرها هو البقاء والتشبث في وطنها تبنيه وتحميه مع شركائها فيه, الأخ الكبير العربي والأخوة الآخرين من أكراد وأرمن وغيرهم . فالوطن هو كرامة الإنسان وسيأتي يوما يتحقق فيه الحلم بممارسة حقوقها في حماية ثقافتها ضمن سيادة الوطن ووحدة أراضيه ومهما طال الزمن تحيل وتعيش على الأمل لأنه ممكن التحقيق ولأنه مطلب حق .

ولكن في كل مرة كانت تركب الطائرات عائلات جديدة بطرق شرعية أم غير شرعية ونسمع فيما بعد بحصولها على الإقامات في ديار المهجر وكل شيء على ما يرام من أخبارها . وأمام أعيننا فرغت فيما بعد عامودا كليا والدرباسية بقي فيها ستون بيتا فقط وكذلك مدينة رأس العين . وهاجرت أعداد كبيرة من قرى الخابور الآشورية ومن مدن الحسكة والقامشلي والمالكية وغيرها . وقد اكتسبت هذه الهجرة وضعا مأساويا في أواسط الثمانينات حيث كانت بوابات كثير من البلدان الأوربية مشرعة لاستقبال المهاجرين وخصوصا ألمانيا والسويد ومع الكثير من التسهيلات والمغريات . وبدا وقتها مع ازدياد وتيرة الهجرة وكأن مسألة إفراغ الجزيرة من المسيحيين ما هي إلا مسألة وقت فقط . ومن لم يفكر بالهجرة بدا ضعيفا أمام مقاومتها أو أمام إقناع الغير من العازمين على الرحيل وعن ثنيهم عن قرارهم .

لقد تفاعلت الكثير من العوامل في مسألة الهجرة هذه فالوضع الاقتصادي المتراجع في سوريا وبنفس الوقت المغريات الاقتصادية في المهجر كانت تأخذ دورا مشجعا كما أن جملة من الأمور الأخرى أثرت بنسبة أو باخرى وساهمت في توصيل المهاجر إلى قراره : أولها أن جملة الحوادث المتلاحقة التي بدأت تظهر في الجزيرة منذ نهاية الستينات من حوادث سلب وسرقة وتعديات . يقوم بها عصابة كانت تسمى عصابة الكف الأسود قامت بعمليات سلب بالقامشلي وفي الدرباسية ورأس العين والقحطانية دونما ملاحقة جدية من قبل السلطات الأمنية المختصة حتى أن الشبهات كانت تدور حول تورط بعض ضباط الشرطة بها والغاية كان يفسرها الناس بالضغط على المسيحيين ليهاجروا . وطبعا لم يقتنع الكثيرون بمثل هذا التشكيك إلا أن سواد الناس

العاديين كانت تقتنع من ذلك . ورافق ذلك خطف لبعض البنات المسيحيات من قبل شباب مسلمين لم يتمكن الأهل من عمل شيء تجاه ذلك . تم خطف فتاة مسيحية في القامشلي وكانت بعثية في بداية السبعينات فقام أخوها الصغير بقتلها غسلا للعار فثارت ثائرة الجماهير الإسلامية وعمت الجزيرة موجة من السخط والعداء ضد المسيحيين . وممثل حزب البعث اعتبر القتيلة في كلمته التأبينية شهيدة من شهداء الحزب ووزعت ليلا بيانات مكتوبة بخط اليد داعية إلى التنكيل بالمسحيين وهدم كنائسهم وتدنيس صلبانهم وتحقير كهنتهم وأخيرا حركت الدعوى العامة بحق المطران قرياقس رئيس أكبر طائفة مسيحية في الجزيرة بجرم التحريض على القتل وعاش الناس في تلك الفترة في ضيق شديد . إن التدابير التي اتخذتها السلطات المحلية لم تعد الطمأنينة للنفوس لأن ما حدث لا ينسى .

وكانت إحدى المحطات الأساسية في عملية تقويض واحد من الدعائم الثقافية والنفسية للسريان في الجزيرة هو عشرات المدارس الخاصة والتي كانت تعبر بشكل أو بآخر عن حالة من الهوية الثقافية وسط التضييقات الإدارية والمالية وجو المراقبة الشديدة على المدارس من قبل وزارة التربية والجهات الأمنية أن أدى ذلك إلى إغلاقها ومع هذا الإغلاق حدث فراغ كبير في البناء الروحي والثقافي لم يعوض وذلك في عام 1969 . وعلى أثر إغلاق المدارس أغلقت الأندية الرياضية الخاصة والمؤسسات الكشفية (سوى كشاف القامشلي) . وانفرط بذلك واحد من أساسيات العقد الروحي بين السريان خصوصا . وتراجعت إلى أبعد مدى حيوية اللغة السريانية وتعليمها والتي كانت أحد العناصر الأساسية المشكلة للهوية الثقافية عند الآشوريين عموما . وقد مارست السلطات المحلية فرع الحزب دورا فاعلا في إضعاف وإنهاء المؤسسات المتبقية من خلال المراقبة الدائمة والمساءلة عن كل نشاط قائم أو قد يقوم . وكان لا يتقبل البعثيون وحتى السريان منهم سماع أي حديث باللغة السريانية أو أي نشاط ذو طابع ثقافي سرياني . ومنع تماما طبع ونشر أية كتب عن تاريخ وثقافة الآشوريين والتراث السرياني في تلك الفترة . وبدت نظرة الريبة والتشكيك في أي نشاط اجتماعي أو ثقافي سرياني يحمل أكثر من حجمه من المراقبة والرفض وكانت تجري توجيهات في الاجتماعات الحزبية لمقاطعة ومحاربة المؤسسات التابعة للكنائس والتي كما ذكرنا سابقا كانت تشكل في وعي السريان ميراثهم الجميل أو ما تبقى منه لا بل ما تبقى من هويتهم القومية .

كانت تجري مثل هذه التصرفات وكان في الوقت نفسه يصل من الأبناء من المهاجر واصفين إياه وكأنه حلم جميل ومجتمع مثالي . فكانت النفوس تتهيأ للخيار الأسهل من بين الخيارات الأخرى .

كانت هناك أيضا بعض الممارسات الخاطئة المتعصبة من قبل بعض المسؤولين بالمحافظة في بعض الأحيان فمثلا في القامشلي وفي مدينة تل تمر على الخابور كانوا لا يقبلون تسجيل أسماء دون طابع آشوري أو حتى مسيحي . فكانت مثل هذه التصرفات تعمق شعور الإنسان بالغربة في وطنه وكأنه غير مرغوب فيه مطلوب منه

أن يقبل كل شيء يفرض عليه . في وقت لم يعد يقبل فيه هذا الإنسان أن يستمر بقبول ما فرض على آبائه وأجداده سابقا وبات حلم الحرية والمساواة التامة في الحقوق والواجبات وحلم حصوله على اعتراف بحقه بممارسة ثقافته وتراثه بكل حرية تداعب مخيلته وذهنيته ولم يعد يرضى بغير ذلك, لم يعد يتقبل بسهولة فوارق ولو طفيفة في الحقوق في نصوص القوانين أو في الدستور . كمثال قانون الأحوال الشخصية ودين رئيس الدولة وغير ذلك .
كل تلك التراكمات من المشاعر كانت كفيلة في تعميق مشاعر الخيبة والإحباط التي كانت من محرضات الهجرة الدائمة .
في منتصف السبعينات ومع نشوب الحرب الأهلية في لبنان والتي كانت بالواقع ساحة لتصفية صراعات المصالح للدول الكبرى, إلا أنها كانت في نظر البعض وليس القليل من مسيحي الجزيرة بأنها شكل من أشكال التعدي على امتيازات المسيحيين في لبنان . وبين الوقت والآخر كانت تصدر عن بعض المسؤولين العرب الكبار كمعمر القذافي أو كمال جنبلاط تصريحات تحرض على معاداة المسيحيين في العالم العربي وتشكك في إخلاصهم لأوطانهم حيث قال كمال جنبلاط : أن موارنة لبنان سيكون مصيرهم كالتالي ثلثهم سيهاجر وثلثهم سيموت وثلثهم سيعلن إسلامه . وفي نهاية السبعينات قامت حركة الإخوان المسلمين التي أثارت المزيد من المخاوف لدى مسيحي الجزيرة عن مصيرهم في حال نجاح الإخوان . وكان المسيحيون أكثر الناس فرحا بانكسار شوكتهم ومع ذلك أثرت في المزيد من مشاعر الحذر والقلق . وهناك عوامل أخرى خارجية محيطة بالجزيرة كالحرب العراقية الإيرانية وقبلها الحرب العراقية الكردية التي أثرت أخبارها وقربها من تنمية هواجس القلق فالمسيحيون في العراق ومعظمهم من السريان حيث راح المئات من قراهم في الشمال وزهقت أرواح الآلاف من الضحايا في سبيل حروب ليست حروبهم اضاف للتنكيل والاستبداد من قبل الحكم العراقي وخصوصا تجاه المسيحيين مما أدى ذلك إلى استمرار هجرتهم أيضا كملاذ وحيد بدول العالم . والوضع في الجوار التركي كذلك حيث لم تتوقف أخبار التعديات والقتل والسلب وخطف الفتيات وسرقة الأديرة والكنائس لمن تبقى من السريان هناك ومن قبل السلطات التركية وأعوانها من حماة القرى الأكراد وغيرهم . فكانت مسيرة الهجرة مستمرة أيضا دون توقف مثيرة في نفوس أقربائهم في الجزيرة مشاعر المرارة والحزن . أما في إيران فإن الثورة الإسلامية أعادت الأوضاع من جديد إلى القرون الوسطى وبدأت بمعاملة السريان الآشوريين هناك من جديد معاملة أهل الذمة (مواطنين درجة ثانية) فهاجر اغلبهم أيضا إلى أمريكا في السنين الأخيرة . أما في الجزيرة فإن التواجد العددي بدأ مسيرة الهبوط النسبي نتيجة الهجرة ونسبة التكاثر المتدنية مما وجد المسيحيين أنفسهم في السنين الأخيرة أقلية عددية لم يعد يحسب لها الحساب الكافي كما كان الوضع قبل عشرين أو ثلاثين عاما خلت سواء في النشاط السياسي خارج الجبهة أم في التعيينات الإدارية في إدارات ومراكز الدولة . ومع تزايد نشاط الأحزاب الكردية في العشرين سنة الأخيرة والتزايد الملحوظ للأكراد في المدن الرئيسية ونجاحهم في مجمل أوجه

النشاط الاقتصادي والعلمي والمهني في المحافظة مقارنة بالتناقص المسيحي النسبي ولد أيضا مشاعر بالضعف تجاههم وبتغلبهم بالمنافسة غير المعلنة سواء عدديا أم سياسيا أم اقتصاديا وخصوصا امتدادهم البشري الكبير في دول الجوار إزاء معادلة معكوسة بالنسبة للمسيحيين .
لقد تقاطعت مجمل خطوط التأثير المحلية والإقليمية هنا في أرض الجزيرة لتزيد من مشاعر الإحباط وعدم الأمان . هذه المشاعر التي كانت حصيلة للأحداث المأساوية في الحرب الكونية الأولى, ولتحفز الناس على الخلاص الفردي عبر مسارات الهجرة الممكنة والمتاحة خصوصا وأن الآمال حول تحسن قريب في أحوال المنطقة وإمكانية إجراء إصلاحات سياسية مرضية في مجال الحريات العامة أو حلم منح الآشوريين السريان شيئا من الحقوق القومية كان قد أضحى مستحيل التحقيق في المستقبل القريب . هذا الحلم الذي يداعب كل آشوري في سوريا أو في الجزيرة فكانت حصيلة المشاعر والاستنتاجات المستخلصة هي الهجرة كخلاص فردي . وطبعا بقي الكثير ممن لا يزالون متمسكين بأرض الآباء بثبات وإيمان بأن الغد الأفضل سيأتي حيث المساواة والعدالة والحقوق القومية ضمن السيادة الوطنية وعلاقات الأخوة والاحترام المتبادل بين كل شرائح المجتمع السوري .
وعموما فإن الهجرة توقفت منذ عام 1990 واشترك عاملين في توقفها, الأول إغلاق بوابات المهجر تماما وثانيها تحسن في مجمل نواحي الحياة في البلاد سواء من جهة الانفتاح الاقتصادي أو من جهة خطوات في الانفتاح السياسي والمرونة في التعامل مع القوى السياسية عموما . وكانت انتخابات مجلس الشعب عام 1990 محطة تفاؤل وإيجابية بدأت تلوح في الأفق والتي نرجو ونأمل أن تستمر وتتعزز . ولابد من الإشارة إلى استمرار الكثير من حالات التعديات وحالات أخرى ناتجة عن فساد في بعض مناحي الإدارة الهامة وتصرفات بعض المسؤولين الخاطئة وغير المنصفة تؤدي إلى ضياع حقوق الناس وسط شبه غياب للمحاسبة . ومن الأحداث والوقائع التي أعرفها خلال السنوات الخمس الأخيرة كمثال مسألة تعدي الملاك على الطلال في قرية الوطوطية على حقوق أكثر من ثلاثين فلاحا سريانيا في حصتهم في أرضهم التي هي بحوزتهم كوضع يد منذ أكثر من ثلاثين عاما . ورغم محاولات الفلاحين الحثيثة في كافة الطرق القانونية فمازالوا لم يحصلوا على شيء ولم يتركوا باب مسؤول إلا وطرقوه وللآن ودون جدوى . كما أن هناك مشكلة كبيرة داهمت الآشوريين في منطقة الخابور خلال العامين الفائتين ألا وهي مشكلة نقص مياه الخابور في فصل الصيف مما أدى إلى خسائر كبيرة في بساتينهم وأقطانهم وأيضا لانعدام توفر مياه الشرب النقية التي كانوا يحصلون عليها سابقا من الخابور عندما كان في وضع تدفقه الطبيعي صيفا واعتقد أن هذه المشكلة ستكون أكبر هذا العام . طبعا فإن هذه المسالة هي بيئية وخارجة عن إطار الإرادة إلا أنه باعتقادي فإن من الممكن للسلطات الإدارية فعل شيء تجاه ذلك فيما لو أخذت الأمور بجدية . إن الواقع المأساوي للمياه في منطقة الخابور تؤدي إلى الاختلال في الاستقرار النفسي والمعنوي لثلاثة وثلاثين قرية هي من أنشط القرى

في ريف الجزيرة على الإطلاق . ثم أن هناك مشكلة كبيرة أخرى سيتعرضون لها وطبعا ليس هم فقط ولكنها ستؤثر سلبا على مجمل عملية الاستقرار في القرى المذكورة من الآشوريين هي عزم الدولة على تحصيل كامل كلفة مشروع الخابور من أصحاب الأراضي المستصلحة والمروية بالخابور وسمعنا أخيرا أن حوالي أكثر من ألف ليرة سورية سيتم تحصيلها عن كل دونم ولفترة ثلاثين عاما . أي أن الدولة في هذه الحالة تكون قد أخذت مجمل دخلهم من هذه الأرض حيث لا يعطي الدونم من الأرض ربحا سنويا يعادل هذا المبلغ وخصوصا وأن معظم أراضيهم كانت سابقا مروية من مياه الخابور بواسطة المضخات الآلية ولم يتغير في واقع أرضهم سوى التغيير في طريقة الري من آلي إلى الراحة في وقت لم يكن يكلفهم الدونم الواحد في الري سابقا إلا بحدود مائتي ليرة سورية فقط .

مسألة ثانية أعتقد أنها اكتسبت مؤخرا وسيكون لاحقا أيضا آثارا سلبية أكثر على واقع مسيحيي الجزيرة عموما وهي قرار إزالة أسماء المحال التجارية وغيرها المكتوبة بكلمات غير عربية (أعجمية) وقد نفذ المحافظ في الحسكة هذا القرار وسيجري تنفيذه في المدن الأخرى كالقامشلي والمالكية وغيرها . ومن المستغرب أن القرار شمل أسماء أعلام وعائلات أصحاب المحال بحجة عدم كونهم أسماء عربية فمثلا أزيل اسم جورج وجوزيف وكبرئيل وجورجينا وكسبو وايغو.. الخ.... وهي أسماء علم مسيحية دخلت في تراث الإنسان المسيحي منذ ألفي عام وللآن . إن إزالتها وبالشكل المتشدد والقسري أوقع الناس في حالة ذهول تام, فكيف يمكن للدولة أن تسمح بمثل هذا التصرف غير المنسجم مع شرعة حقوق الإنسان ومع احترام الكرامة الشخصية للناس أصحاب المحال المذكورة إضافة إلى أنه باعتقادي يخالف أحكام الدستور أيضا . إن مثل هذا التصرف الغريب إنما أيقظ في ذاكرة الناس ما فعله اتاتورك في تركيا من إزالة كافة الأسماء السريانية على الإطلاق في دائرة النفوس فبات الناس يتساءلون هل هذه خطوة لإزالة اسمائنا في دوائر النفوس مستقبلا . إنها أسئلة مشروعة أيضا وبات الناس يتسائلون عن مدى معرفة السلطات العليا في العاصمة بما يجري ؟. إن مثل هذا التصرف يسيء إلى سمعة بلدنا خارجيا لأن كل ما يحدث في الجزيرة يصل خلال ساعات إلى المهاجر من خلال وسائل الاتصال وزيارات الوفود السياحية المستمرة . إن مثل هذه الأعمال ترمي الوطن بظلال قاتمة .

لنعرض حالة أخرى : إن الطريقة التي جرت فيها انتخابات مجلس الشعب لعام 1994 لم تكن تنسجم أبدا مع الطرق الديمقراطية والحضارية . فأجبر الحزب معظم المرشحين المستقلين على الانسحاب لصالح أربعة مستقلين تبناهم الحزب في قائمة الجبهة وهم يمثلون تاريخيا رموز إقطاعية وغير ديمقراطية وغير حضارية ولا تمثل في أي حال مزاج وثقة الناس ووسط أجواء مفعمة بالتشكيك والعدوانية مورست ضد المرشحين المتبقين ووصفوا فيها بالعداء للوطن والعروبة . وقد وصف أمين فرع الحزب عبد العزيز النعيمي في خطاب جماهيري له في الحسكة قبل الانتخابات (بأن هؤلاء العصابات لن يكون لهم دورا في هذه الانتخابات) . طبعا أشاع هذا الخطاب جو من

الامتعاض والاستهجان والسلبية, وقد أحسه كل من هو خارج الجبهة بأنه موجه ضده وكانت نتيجة الانتخابات معروفة سلفا إثر ذلك الخطاب . وبالتالي جرت الانتخابات وانتهت بالفعل وسط استياء عام شديد وكأن المرحلة الإيجابية التي رافقت انتخابات عام 1990 قد أصبحت من الماضي .

إن التعداد التقريبي لآشوريين (السريان الكلدان والنساطرة) في الجزيرة والمهاجر هو كالتالي الآن : إن التعداد المتبقي في الجزيرة من السريان اليعاقبة والكاثوليك والنساطرة هو بحدود 200 ألف نسمة أي ما يعادل خمس سكان الجزيرة وهو رغم قلته يشكل عددا ونسبة معقولة وخاصة مع توفر السمة النوعية لهم في مجال النشاط الاقتصادي والثقافي والمهني والعلمي مما يجعلهم قوة لازالت قادرة على لعب دور هام في مجال الحياة العامة عند توفر الظروف المناسبة إضافة لقوة وتوزع المهجر السرياني في كافة أرجاء العالم وإمكانية الاستفادة من طاقاته الكبيرة في تسخيرها لصالح الوطن من خلال عملية ارتباط مناسبة عندما تتكون الثقة المتبادلة بين المهاجرين ووطنهم .

إن عدد المهاجرين التقريبي في أرجاء العالم والذين هاجروا من الوطن يتوزع كالتالي: عموم الاتحاد السوفيتي السابق يبلغ حوالي ستين الفا – وفي السويد حوالي الخمسين ألفا – وفي ألمانيا حوالي الستين ألفا – وفي بلجيكا وهولندا عشرة آلاف – وفي فرنسا حوالي خمسة آلاف – وفي اليونان خمسة آلاف – وفي النمسا بحدود الخمسة آلاف . أي يبلغ عدد المهاجرين في عموم أوروبا حوالي مائة وأربعين ألفا .

في كندا حوالي خمسة وعشرين ألفا – وفي الولايات المتحدة حوالي مائتي ألف – في أمريكا الجنوبية حوالي الثلاثين ألف (مهاجرون قدماء) – في استراليا ونيوزيلندا حوالي الثلاثين ألفا – وفي لبنان حوالي أربعين ألفا – وفي المدن الداخلية في سوريا أي حلب ودمشق وحمص وحماة يبلغ السريان حوالي المائة ألف (طبعا لم نشمل تعدادنا السريان الموارنة والملكيين) . وفي العراق يبلغ التعداد مليون ونصف وفي إيران خمسة وعشرين ألفا وفي استانبول عشرة آلاف .

أسس المهاجرون السريان في أوروبا وأمريكا وروسيا واستراليا الجمعيات والأندية الثقافية والاجتماعية والرياضية ذات الطابع القومي الثقافي لغرض حماية الوجود القومي هناك من الانصهار في مجتمع المهجر ولغاية الحفاظ على اللغة السريانية والتراث الثقافي بشكل عام . وهناك أيضا مؤسسات تابعة للكنائس لها طابع ديني تربوي, إضافة لوجود أحزاب قومية سياسية في أوروبا وروسيا وأمريكا واستراليا تعمل جميعا من أجل حقوق الآشوريين القومية في الوطن وحماية الوجود القومي من الانصهار في المهاجر وفي الجوهر تنصب كل أهداف الأحزاب المذكورة على تحقيق الحقوق القومية سواء الثقافية والسياسية في الوطن ضمن إطار سيادة الدولة ودون أي هدف لإنشاء دولة مستقلة كما يشاع أحيانا . بل تؤكد جميعها على مطالب العدل والمساواة في الحقوق والواجبات والحريات العامة والمجتمع المدني والديمقراطية وتبقى المنظمة الآثورية الديمقراطية والحركة الآشورية الديمقراطية الحزبان الوحيدان

اللذان تشكلا بالوطن . المنظمة في سوريا والحركة في العراق والذين لهما تواجد في الوطن والمهجر بشكل فعال ولهما تجربة نضالية متشابهة . وبينهما تقارب في الأفكار والبرامج بشكل كبير ولهما التأثير الكبر في أوساط الشعب الآشوري السرياني في كل المهجر والوطن .
وفي ختام هذه المقالة أقدم جملة أفكار وهي تمثل في تقديري حقيقة واقع ومستقبل الآشوريين (السريان والكلدان) أينما كانوا ورؤيتهم إلى واقعهم ومستقبلهم وهي تنسجم في الجوهر مع تطلعات مؤسساتهم وأحزابهم القومية في الوطن والمهجر وهي في جوهرها تتكامل مع أهداف العرب وكافة شعوب الوطن ولا تتعارض معها :
أولا – يتطلع السريان إلى حماية وإحياء لغتهم وثقافتهم وتراثهم عبر تشريعات وقوانين معترف بها . وكمثال عملي أعطت الحكومة العراقية عام 1972 للآشوريين في العراق هذا الحق عبر مرسوم من مجلس قيادة الثورة تحت عنوان (منح الحقوق الثقافية للناطقين بالسريانية من كلدان وسريان وآثوريين) ورغم كونه ولد ميتا ولم يطبق إلا جزئيا غلا أنه وضع أساسا قانونيا لشرعية مثل هذا المطلب وتحقيقه عمليا سواء في العراق أو في سوريا أو تركيا . إن مثل هذا القانون إنما يساعد في حل مسالة وطنية كبيرة بحل عقدة الحرمان والغربة للسريان في وطنهم بل ويساهم في زج طاقات المهجر بالوطن من خلال مشاعر الرضى والاطمئنان والإيجابية التي سترافق صدور مثل هذا القرار, بل سيعزز بثبات تعلق وارتباط وتوصل المهاجرين بوطنهم . وفي المحصلة فإن هذه الثقافة السريانية إنما هي بحقيقتها ثقافة وطنية لا تنفصم عراها عن الثقافة العربية الجديدة بعد الفتح الإسلامي . إن مثل هذه الخطوة لن تباعد السريان عن العرب ولا الثقافة السريانية عن الثقافة العربية بل تقاربها وتتكامل معها كحصيلة ثقافية للوطن المشترك وخصوصا ونحن قادمون على صراع ثقافي من نوع جديد وحاد بين الثقافة الوطنية إزاء الثقافة الإسرائيلية والأوروبية عموما في مرحلة السلام إذا حلت أو لم تحل . فالصراع بين الشرق والغرب ثقافيا سيستمر ولن يتوقف . إن تكامل الثقافة السريانية كثقافة وطنية قديمة مع الثقافة الوطنية الجديدة العربية تكون حصيلتها ثقافة وطنية ذات دعائم راسخة .
ثانيا – إن وحدة المشرق العربي (العراق وسوريا ولبنان والأردن) كخطوة نحو الوحدة العربية سواء بشكلها الاندماجي أو الفيدرالي أو حتى أي شكل للتضامن العربي هي في حقيقتها تنسجم مع التطلعات القومية الآشورية ولا تتعارض مطلقا معها . والآشوريون سيكونون سعداء لمثل هذه الوحدة كالعرب تماما . لأن في مثل هكذا وحدة تتحقق إمكانية التواصل الاجتماعي والثقافي والسياسي بين أبناء الشعب الواحد وتتكامل دورة الحياة القومية بين كافة أبناء الشعب الواحد خصوصا وأن شعبنا منتشر في هذه الدول بشكل متساو وهي أراضيه التاريخية, ففي كل شبر فيها من البحر وحتى الخليج يجد آثار أجداده من ديارات وتلال ومواقع آثارية ومدن وذكريات . إن الوحدة العربية بشكلها الديمقراطي المدني الحضاري القائمة على أسس العدل والمساواة والحرية إنما تتطابق تماما مع تطلعات الآشوريين وأيضا مع تطلعات بقية شعوب الوطن .

ثالثا – إن أرض الرافدين العليا الموجودة الآن في حوزة تركيا والتي يتطلع إليها السريان عموما كبيتهم الذي طردوا منه, والتي تمتد من حيكاري شرقا وحتى الرها وأنطاكية واسكندرون غربا . ستبقى أنظارهم متوجهة للعودة إلى تلك الديار التي طردوا منها كأرض الآباء والأجداد عبر المطالبة في كل المنابر والمنتديات العالمية بحق السريان بالعودة واستعادة كافة ممتلكاتهم وأراضيهم مع التعويض عن الخسائر من قبل الحكومة التركية ومن ساندها في أيام الأحداث . ومع مطالبة المجتمع الدولي بتقديم الحماية الفردية للعائدين, والمطالبة باعتراف تركيا بارتكابها المجازر المذكورة . إن هذه المطالب العادلة وإن تبدو للوهلة الأولى نظرية ومستحيلة التطبيق تكتسب في قانونيتها وحقوقيتها ووضع العالم الجديد إمكانية جدية للتطبيق وإن ليس بالقريب العاجل .

إن تبني سوريا وهي مرشحة أكثر من غيرها بل الوحيدة حاليا لدعم مثل هذه المطالب كون السريان هم بشكل أو بآخر سكان سوريا الأصليين تاريخيا, وخصوصا عندما تعترف هي قانونيا بحقوقهم القومية فيها كشعب أصيل وأنها وريثة حضارة وتاريخ الرافدين وبالتالي التاريخ الآشوري إنما يصب في مصلحة الطرفين الحق العربي ومصالح السريان الآشوريين . وعندما يحين الظرف المناسب لوحدة عربية في المشرق بين سوريا والعراق مثلا يمكن لهذه الصورة أن تتكامل أكثر فأكثر نظرية وتطبيقا . وحتى إن ألغينا احتمال استعادة أرض الرافدين العليا لوريثة الحضارة الآشورية وهي الدولة العربية المشرقية, فيكفي هذا الوضع الذي نناقشه أن يفرض على شمال سوريا (الواقعة في تركيا) واقعا جديدا يحوي في طياته جالية سريانية هي بمثابة حاجز بشري من أبناء الوطن التاريخيين يحمون حقه في مياهه ومصالحه العليا .

إضافة لمسألة هامة وهي أن التعامل مع الجنوب الشرقي لتركيا كأرض لما بين النهرين العليا, وحيث أن الدولة العربية المشرقية هي بالجوهر وريثة تاريخية لها إنما يفوت الفرصة على تغيير معالمها وإطلاق تسميات جغرافية أخرى عليها مثل شرق الأناضول أو تركيا الجنوبية . عندما تغيب الحقائق التاريخية عن التداول العلمي بها وتعمل بدلا عنها المصالح الدولية تغيب الحقيقة على أصحابها .

رابعا – المهجر الآشوري ورغم درجة الانصهار النسبي القائمة في ثقافات دول المهجر إلا أن لمثل هذا الواقع القائم في المهجر جوانبه الإيجابية أيضا فالآشوريون المهاجرون اكتسبوا فيه تلك الثقافات واللغات وتوصلوا فيه إلى الكثير من المواقع المتقدمة في مجالات الاقتصاد والثقافة والعلوم ومراكز القرار ويمكن استخدامه وتثميره في مصلحة الوطن عندما يقتنع مهجرنا شعبا ومؤسسات بأن سوريا أو (وحدة سوريا والعراق مثلا) أصبحت فعلا بمثابة الوطن الأم لهم . وذلك فقط عندما يلمسون تبني سوريا للسريان بأنهم الشعب الأصيل وتعترف بوجوده قانونا من خلال منحه حقوقا قومية (ثقافية وسياسية كحق التمثيل النسبي والدائرة الانتخابية المستقلة) ومع مساواته في كامل الحقوق في القوانين والدستور . وعندما يتم التعامل مع الأحزاب والمؤسسات الثقافية الآشورية وحتى الكنيسة منها على هذا الأساس بكل وضوح

وشفافية . عندها سيقتنع المهجر مثلا بأن سوريا أصبحت فعلا بمثابة الوطن الأم وسيمكن استثمار قوى المهاجر غير المحدودة في سبيل مصلحة الوطن العليا الذي سيصبحون جزءا حقيقيا منه . خصوصا في المرحلة المقبلة حيث يتوقع تعرض الوطن لتحديات عصرية من نوع جديد, تحدي الغزو الثقافي وثورة وسائل الاتصال والتكنولوجيا والتحدي الإسرائيلي وربما التركي أيضا . وأن التحضير لمثل هذا التحدي يتطلب مثل تلك الخطوات المذكورة بتقديري, وأعتقد وأنا عضو في المنظمة الآثورية الديمقراطية أنها مستعدة دوما لمد يدها للتعاون مع الأخ العربي الكبير ودولته الرائدة في المنطقة وهي سوريا في كل ما من شأنه المصلحة العليا للوطن حيث أن مصلحة الشعب الآشوري إنما هي جزء من مصلحته العليا في علاقة جدلية لا تنفصم . وأنها مستعدة باعتقادي للحوار القائم على الاحترام المتبادل وحتى المشاركة في الجبهة الوطنية التقدمية على أسس واضحة وثابتة . وأن مثل هذه الأفكار ومناقشتها هي بتقديري ضرورة ملحة, وأن خطوة للاعتراف وللمشاركة في بناء الوطن بقانونية وشرعية إنما هي إحدى الخطوات الجريئة والعملية لتوحيد طاقات الآشوريين أينما كانوا في الوطن والمهجر من أجل زجها في بناء وحماية وطننا المشترك ونصرته في تحدياته القادمة .

15 تموز 1996 أ. أكاد